

ابن شهيد الأندلسي شاعراً وناثراً وناقداً

الدكتورة مرضية أباد^١

أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد يعتبر أحد فحول الأندلس في صناعة الشعر والنثر في القرن الخامس الهجري، له آراء جامعة قيمة في النقد تجعلنا نعترف به كناقذ ذى موهبة. أضف إلى ذلك رسالته الجميلة «التوابع والزوابع» التي تنم عن مقدرته الفذة في الابتكار وإن كان تابعا للمشرق في مذهبه الشعري والنثري، شأن الأندلسيين جميعا. في هذه المقالة نتناول بالبحث التحليلي جوانب من شخصية هذا الأديب الفذة كناقذ وشاعر وناثر عذ من أعلام الأدب العربي في الأندلس.

الاصطلاحات الرئيسية: ابن شهيد الأندلس، الأدب الأندلسي، الشعر، النثر، النقد، تاريخ الأدب.

^١ . أستاذ مساعد في جامعة فردوسي مشهد

لقد ضربت الحضارة الإسلامية قبعتها قروناً طويلة فانتجت ثماراً طيبة يأنعة يفتخر بها كل عربي و كل مسلم بل كل إنسان نبيل يحب البشرية وفضائلها وخيراتها، وفي ظلها الوارفة بز كثير من العلماء والأدباء كائنة في العلوم والفن والصناعة مساهمين بجهودهم ومساعدتهم الحديثة في بناء صرح منارتها العلية. ومن بين هؤلاء الأئمة الأعلام في حسن فن وصناعة العربية أبو عامر بن شهيد الأديب الشاعر الناثر والناقد الأندلسي الذي ملأ أفق الأدب بنفسه رديحاً من الزمن وهو صاحب الرسالة النفيسة المسماة بـ«التواضع والزواضع» التي أعجبتني فحملتني على اختيار شخصية هذا الرجل مادة لهذا المقال.

أما فيما يتصل بحياة الرجل فقد تناولها بالبحث «شارل بلا» في كتابه «ابن شهيد الأندلسي حياته وأثاره»، حاول فيه إلقاء الضوء على مختلف جوانبها إلا أن فصولاً من حياته لا تزال مغشية بغير قليل من الغموض والإبهام، يدل على ذلك أنني قرأت ترجمته في الكتاب المذكور ثلاث مرات فلم أكد أتبين من خلالها حياة الشاعر جلية واضحة والمشكلة فيما أضل هي نقص الأخبار المروية واضطرابها. وإن منشأ هذا الاضطراب هو أن الفترة التي كان يعيش فيها الشاعر في قرطبة فترة مليئة بالآزمات والفتن.

ولد أبو عامر بن شهيد سنة ٣٨٢هـ بقرطبة في بيت عريق في الشرف والعلم يرجع بنسبه إلى أشجع من قيس عيلان^٢ فهو من العرب الأقحاح من ولد شهيد بن عيسى جد بني شهيد الذين شغلوا مناصب هامة خلال فترة حكم الدولة الأموية كلها^٣، فمثلاً شهيد بن عيسى كان أميراً على جيش عبد الرحمن الأول الداخل وكان

أديباً شاعراً^٤ ثم ابنه عيسى أصبح حاجباً لعبد الرحمن الثاني ثم استوزره محمد الأول فاستمر توليهم لمناصب الدولة حتى أن جد أبي عامر أحمد بن عبد الملك كان أول من لقب بذي الوزارتين وكان أديباً بارعاً وكان في أيام عبد الرحمن الناصر^٥ كما كان أبوه من ذوي المناصب العالية في دولة بني عامر وكان بينه وبين المنصور العامري علاقات متينة يدل عليها تصريحات ابن شهيد في بعض رسائله، فمثلاً نراه يخاطب المؤتمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن أبي عامر بقوله: «أقل ما أمت به... من مواتي بالمنصور جده... أني نشأت في حجره... ومن مواتي بالمظفر عمه... أن أبي... لما بعد أمله... نكب عن طريق أهل الدنيا... فسلبنى بزى... فكانت أفدح نازلة نزلت بصبوتي... وأنا إذ ذاك ابن ثمان». كذلك للمقرئ خبر يؤيد ما ذكرنا من صلة بني شهيد الوثيقة ببلاط العامريين^٦.

كان أبوه شيخاً مريضاً اعتزل المناصب الحكومية ومال إلى الزهد والتسك فكان ذلك «أفدح نازلة نزلت» بنفسية ابن شهيد الطموح إلى المناصب، على حد تعبيره في فقره السابقة، ويبدو من كلامه في هذه الرسالة أن أسرته كانت تعيش في ضيق بسبب اعتزال أبيه المناصب وأكبر ظني أنه إنما اعتزل المناصب لمرضه وضعفه عن القيام بها، يدل عليه تصريح ابن شهيد حيث يقول:

«لقيني الوزير ابن مسلمة وقد عاد أبي إثر إيلال وعند نقوة من اعتلال»^٧.

مهما يكن من شيء فقد نشأ شاعرنا في بيئة من الوزراء والكتاب والشعراء وكبار الموظفين و كان

يتنقل بينهم بسهولة و يستقى من مناهلهم. ثم مات أبوه سنة ٣٩٣ هـ، وهو ابن إحدى عشرة سنة فلم يحظ كثيراً من برّ أبيه و ماله و بقي يتيماً لا قرابة له إلا أنه «استمتع بصداقة كبار الموظفين و حمايتهم، منهم الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الذي كان شاعراً شهيراً و ناثراً مقدراً»^{١٣}.

ولقد أبدى الطفل اليتيم مقدرته الأدبية فاسترعى الأنظار و كان يتوقع مستقبلاً زاهراً في ظلّ العامريين حتى هبت الفتنة نكباء وهو في السابعة عشرة من عمره، والمراد بالفتنة هو تنازع الأحزاب المختلفة في قرطبة على الخلافة^{١٤} وفي خلال ذلك تعرضت قرطبة للذمار و انتضى حكم بني عامر، فهذه الأحداث ألّمت شاعرنا إيلاًماً شديداً؛ إليها يشير في قصيدة ضمنها رسالة أرسلها إلى المؤتمر، منها^{١٥}:

من فتنة قد أسبلت
ظلماتها بيد المظالم
عميت لها أحلامنا
وكانها أضغاث حالم
وتضاعلت أجرامها
فيها بموبة الجرائم
وتحوّلت فينا الدنيا

بي الرأس و ابن المجد راغم
وقد بقي بعيداً عن البلاط إلى أن جاء إلى العرش المستعين فجعل يختلف إلى قصر الخليفة «حيث كانت تتعقد مجالس أدبية بالرغم من حرج الموقف»^{١٦} ففي هذه المجالس بدأت براغم طبعه الفياض في التفتح بحيث جعله موضع حسد كثير من معاصريه فلقى منهم عنفاً كثيراً وله تصريحات وإشارات كثيرة تفصح عن تبرمه

من هؤلاء الخناد^{١٧}.

كما أنه ليس لدينا أخبار صحيحة تبين لنا أحوال الشاعر في الفترة الحمودية إلا أنه تعرض في أيام القاسم بن حمود لمكاره أليمة منها السجن^{١٨} ويبدو أنه اتصل في هذه الأثناء بعبد العزيز بن عبد الرحمن الملقب بالمؤتمن وهو حفيد للمنصور بن أبي عامر من ابنه سنشول، ستولى على بلنسية فحكم فيها برهة فمعظم ما بقي من منشور ابن شهيد هو رسائل موجهة إلى هذا الأمير و قد أودعها أخباراً شتى وآراءه الشخصية في مختلف المسائل إلا رسالته المسماة «بالتوابع والزوابع»؛ كذا في هذه الرسائل أربع قصائد يمدح بها المؤتمن^{١٩}.

وفي سنة ٤١٤ هـ وقعت حادثة كبيرة ذات أهمية فائقة في حياة ابن شهيد وهو أن أهل قرطبة عزلوا يحيى بن عليّ و بايعوا عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر، وكان المستظهر هذا ميّالاً إلى الأدب والشعر فجعل ابن شهيد وزيراً له إلا أن حكمه لم يدم طويلاً فانهار بعد سبع وأربعين يوماً فهرب ابن شهيد إلى مالقة ولحق بيحيى بن حمود الملقب بالمعتلى ثم عاد إلى قرطبة في وقت غير معين.

وكان لشاعرنا في أيام هشام الثالث سنة ٤٢٠ هـ دور يمكن أن نسميه فعّالاً إلى حدّ ما حيث لحق به فقربه هشام منه حيث قام بدور الكاتب والشاعر له، ومن قصائده في مدح هشام هي التي يقول في أولها^{٢٠}:

أحللتني بمحلة الجوزاء

ورويت عندك من دم الأعداء

«وحاول ابن شهيد أن يقترب من مجاهد العامري صاحب دانية وميورقة و كان صديقاً له في

حدثته في دولة بنى عامر^{٢٧} وتلقب بالموفق بالله غير أنه لم يلتفت إليه تكبراً منه... إلى أن ذهب نفسه... آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة^{٢٨} وكان قد أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبي الوليد الزجالي ويكتب على قبره نثر يؤيد إيمانه بالإسلام ومبادئه ونظم في الحكمة يدل على غرور الدنيا وباطلها وفي نهايته يستغفر الله فمن نشره «بسم الله الرحمن الرحيم قل هو نبي عظيم أنتم عنه معرضون هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب، مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن البعث حق»^{٢٩}. ومن نظمه:

يا صاحبي قم فقد أظننا

أنحن طول المدى هجود

فقال لي: لن نقوم منها

مادام من فوقنا الصعيد

تذكر كم ليلة لهونا

في ظلها والزمان عيد

كل كان لم يكن تقضى

و شومه حاضر عتيذ

يارب عفوا فأنت مولى

قصر في أمرك العبيد^{٣٠}

«بالكافور»^{٣١} ويقول ابن حيّان: «إذا تأملت له ولسنه و كيف يجر في البلاغة رسنه قلت عبد الحميد في أوانه والجاحظ في زمانه... وشعره حسن عند أهل النقد»^{٣٢}. «غاية الملاحه وشعره في غاية الفصاحة»^{٣٣} و يصف بن بسام نظمه ونثره بالجودة فيقول: «نظم كما اتسق الدر على النحور ونثر كما خلط المسك أما فيما

يتصل بشخصية الشاعر الأدبية فأراء النقاد والأدباء فيه مختلفة إلا أن أكثرهم يقفون بجانبه معجبين به مشيدين بذكره فيقول الثعالبي: نثره في وممن خالفه ابن الحناط يهاجمه بقوله: «أخونا أبو عامر يسهل نثراً وبطيل نظاماً شامخاً بأنفه ثانياً من عطفه مخيلاً أنه أحرز السبق في الآداب وأوتى فصل الخطاب فهو يستصغر أساتيد الأدباء ويستجهل شيوخ العلماء»^{٣٤} وكما يظهر من النص شاعرنا كان متكبراً معتزاً بنفسه وأدبه وهذا أحد الأسباب التي دفعت بعض الشخصيات على عداوته ومخالفته ثم هناك عامل آخر لعلته أهم وأبعث على المخالفة بالنسبة إلى جمهور الناس وقوادهم من رجال الدين وهو ما اشتهر الرجل به من الفسق والمجون غير أن صاحبنا يرفض هذه التهمة ويدعي إنما يتناول ذلك في مضمار الشعر بسبب شغفه بالشعر وبالمعاني الجميلة فلا ذنب له إلا حبه للشعر الذي جعله شقياً وسعيداً في أن واحد فهو سعيد لأنه وجد المحبوب وهو شقى بهذه التهمة التي لصقته؛ يقول: ^{٣٥}

وما في إلا شعر أثبت الهوى

فسار به في العالمين فريد

أفوه بما لم آت متعرضاً

لحسن المعاني تارة فأزيد

فإن طال ذكرى بالجنون فإننى

شقى بمنظوم الكلام سعيد

لعل حنا الفاخورى نظر إلى هذه الأبيات حيث قال إنه كان يحب مجالس الأتس لكنه لم يكن يشاركهم في الخلاعة والفسق^{٣٦}.

وممن صرح على مجونه ابن حيّان حيث قال: «كان في سرعة البديهة و حضور الجواب وحدته مع رقة

الفاخوري أنه وقف همه على النثر أكثر منه على الشعر^{٣٩} وربما يكون الباحث مصيباً في قوله لأننا نرى أنه يضمن بعض أشعاره رسائله دفعا للملل والسامة غير أن رأيه هذا لا يستند إلى دليل لأن هذا العمل ليس إلا للدلالة على أنه يملك ناصية الفئين والدليل على ذلك هو أننا نراه في رسالته المعروفة بـ«التوابع والزوابع» لا يكتفى بمعارضة الشعراء بل معارضته تتناول الخطباء أيضاً. علاوة على ذلك لم يصل إلينا من أدبه إلا شيء يسير فيمكن أن يكون شعره قد ضاع فوصل نثره إلينا أكثر من شعره.

ثم يذهب الباحث إلى أن شعره قوى التخيل ضعيف التفكير لأنه يميل إلى الهزل أكثر من الجد ويذهب إلى أن أشعاره اللاهية ليس فيها إقذاع وفحش فلذلك تميل طابع الناس إليه والحق كما يقول، وقلة الإقذاع في هذا الشعر يساند رأيه من أنه لم يكن يشارك الملاحى و الفسق الشائع في المجالس آنذاك. وقد أدخل ابن شهيد في الشعر أشياء بعيدة عن الشعر وأجاد فيه كقوله في حمام أخلى لدخول أبى عامر وكان الشاعر ممن خرجوا منه:^{٤٠}

يا حسن حمامنا وقد غربت
شمس الضحى فيه بعدما متعا
أيقن أن الهلال راكبة
فضاء للحاضرين واتسعا
فأنعم أباً عامراً بنعمته
وأعجب لأمرين فيه قد جمعا
نيرانه من زنادكم قدحت
وماؤه من بنانكم نبعا

حواشى كلامه وسهولة ألفاظه وبراعة أوصافه ونزاهة شمائله وخلانقه آية الله خالقه من رجل غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة^{٤١}. مهما يكن من شيء فإننا لا نستطيع أن ننكر اشتغاله بشيء من الخمر والمجون لأن شعره أوضح دليل على ذلك فإنه كأحد أبناء زمانه جارى عصره فأراد أن يتمتع بما يسنح له؛ يقوى ذلك ميله الشديد للعيش ومظاهر الجمال فيه.

على أنه كان كريماً جواداً مسرفاً حتى شارب الإملاق و«كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره وأضلهم عنه في ذاته وأشدّهم جناية على حاله ونصابه»^{٤٢} فكان بذلك جامعاً للأضداد ولعل هذه النكته هي التي حمل بعض الباحثين أن يخالف ابن حبان في خلاعته ومجونه. يرى عمر فروخ أن أباً عامر اضطر إلى التكسب بشعره للحصول على الرزق^{٤٣} لكن دراسة ما بقى من شعره ينافى هذا الرأى فـ«شارل بلا صائب حيث يقول: «الحاصل أن ابن شهيد شاعر مطبوع لم يتكسب بالشعر بل قاله لمجرد لذته فهو من أنصار الفن للفن على حسب ما تدل عليه مدائحه للمؤمن»^{٤٤}.

وأما شعره فيبدو أن شاعرنا كان يمارس قول الشعر منذ صباه إلا أن ما بقى من شعره قليل جداً معظمه ما جاء في الذخيرة لابن بسام حيث حفظ لنا مقطوعات نثرية قيمة أيضاً وقد جمع المستشرق شارل بلا ما جاء في الذخيرة وغيره من المجموعات من شعره فجعله في ديوان طبع سنة ١٩٦٣ حصلنا عليه من مكتبة حسينية الكربلايين بطهران.

نعم والحقيقة هي هذه، هو يعتمد ليظهر براعته على الجميع فلم يكن يبحث عن طريقة مبتكرة ثم يرى حنا

وفي خمرياته يتبع أبا نواس، ثم هو مغرم، شأن كل الأندلسيين بالطبيعة ووصف مناظرها فقال في وصف السحاب^{٤١}:

وغمام باكرتنا عيئه

تترع الأفق بدمع صيب

مثل بحر جاءنا من فوقنا

جرمه من لؤلؤ لم يثقب

وغزله يتسم بالمجون والهزل دون فحش ويبدو أن هجاءه كان مقدما جدا تدل عليه قطعة ذكرها ابن بسام في الذخيرة وسمّاها أبو عامر تعريضا فقال ابن بسام معلقا على القطعة المذكورة: «ليت شعري ما التصريح عند أبي عامر إذا سمي هذا تعريضا؟ ولولا أن الحديث شجون والتتابع فيه جنون... لما استجزت أن أشين كتابي بهذا الكلام البارد معرضه والبعيد عن السداد غرضه»^{٤٢}.

ويذهب شارل بلا أن مرثيه لا تتم عن نبوغ خارق للعادة^{٤٣} خلافا لاعتقاد الشاعر نفسه حيث نراه في رسالته «التوابع والزوابع» يلقي على لسان الجن استنشاد رثائه^{٤٤}.

وقال ابن حيان فيما يتصل بآثاره النثرية: «وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برز فيها شأوه وأبقاها في الناس خالدة بعده»^{٤٥}. إلا أن هذا الخلود المبشّر به لم يدم طويلا فضاع أكثر آثاره النثرية كما ضاع أكثر شعره وما بقي من شعره ونثره يرجع الفضل فيه إلى ابن بسام حيث حفظ لنا غير قليل من أدبه في كتابه الذخيرة فأفرد له ١٢٨ صفحة تشتمل على مختارات من رسالته التوابع والزوابع ونصوص شعرية ونثرية

مختلفة خاصة الأشعار التي قالها في أيامه الأخيرة^{٤٦}. ثم في اليتيمة رسالة في البرد^{٤٧} والحمّام وفي البعوضة^{٤٨} ووصف لجارية^{٤٩} كما أن له كتابا تحت عنوان «حانوت عطار» يحتمل أن يكون قد عارض فيه الجاحظ وهو مفقود ثم كتاب آخر اسمه «كشف الدك وإيضاح الشك» هو مجهول أيضا.

أما رسالته التوابع والزوابع^{٥٠} فهو أجمل ما بقي منه وأمتع وأدل آثاره على نبوغه حيث ابتكرها ابتكارا لم يسبق له مثيل ورد الباحثون عنه شبهة تقليده لأبي العلاء المعري في رسالة الغفران^{٥١}. هذه

الرسالة قصة خيالية نسجها ابن شهيد لإظهار براعته وتفوقه على جميع المجيدين

في الشعر والنثر من المنقذين والمتأخرين انتقاما منه من معاصريه وأهل بلده الذين جعلوه غرضا لسهام حسدهم. ففي هذه القصة يظهر له شيطانه الذي اسمه زهير بن ثمير فيذهب به إلى وادي الجن من الشعراء والكتاب مبتدئا بالجاهليين فيتدرج إلى أن ينتهي إلى من يعيشون في عصره فيتناشدون الأشعار ويتبادلون الخطب والكلام الفصيح البليغ فيظهر ابن شهيد في كل جلسة في مظهر الفائق المحكوم له بالإجادة.

أما خصائص نثره فأول ميزة تتجلى فيه هو اصطناعه السجع بحيث يكاد جميع النقاد من القدماء والمعاصرين يجمعون على أنه في نثره من المتكلمين فيقول زكي مبارك: «فهو في الأكثر جعجة وقعقة وقفللة في غير نفع ولا غناء»^{٥٢}. غير أن هذا التكلف لا يطرد في كل منشوره كما نرى في رسالته الموجهة إلى مجاهد أمير دانية^{٥٣}.

ثم هو لم يكن يحرص على الصنائع البديعية وقد

بذلك أيضاً أن ابن حيان شَبَّهه بعبد الحميد والجاحظ في الفقرات التي ذكرنا قطعاً منها^{٥٧}.

أما من حيث الموضوعات، فيرى حنا الفاخوري أن نثره يمتاز أولاً بموضوعاته الطريفة النادرة في النثر العربي^{٥٨}. يريد بذلك رسالته «التوابع والزوابع» ورسالة «الحلوا» وأوصافه للشعلب والبعض وغير

ذلك. ثم هو يرى مع بعض الباحثين أنه في نثره ينهج منهاجاً هزلياً فكاهياً إلا أن حظ الفكاهة فيه قليل جداً كما يقول إحسان عباس: «لما كتب ابن شهيد «شجرة الفكاهة» أو رسالته المعروفة بالتوابع والزوابع لم يكن للفكاهة فيها حظ كبير يناسب ما فيها من عجب وزهو ذاتيين»^{٥٩} والحق في رأبي، كما يقول، لأن من يقرأ الرسالة قلماً يرى فيها أثر الهزل والفكاهة إلا تحكيم جماعة البغال والحمير له والحقيقة هي أن الإنسان يبحث ما وراء هذا الهزل عن شيء جدّي.

فهل يرى كاتبنا ابن شهيد أن كثيراً ممن يدعون الأدب شأنهم كهذه العانة؟ لأنه لما دار دورته فيمن يعترف بهم كشعراء وخطباء وصل إلى هذه العانة أو أنه أراد مجرد الهزل والفكاهة؟ فإني جدّ مانئ إلى الأول.

كان أبو عامر ذا شخصية متنوعة الأبعاد فلم يكن شاعراً وناثراً فحسب بل نجد له آراء جامعة نفيسة في النقد تجعلنا نعتز به كناقدٍ ماهر ذي موهبة، منها ما جاء في الذخيرة: «إصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو بل بالطبع مع وزنه من هذين ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً ومن كان جسمه مستولياً على نفسه - من أصل تركيبه - والغالب

دافع عن أسلوبه المسجع مجيباً لصاحب الجاحظ في رسالته التوابع والزوابع قائلاً: «فقال إنك لخطيبٌ وحائكٌ للكلام مجيدٌ لولا أنك مغرٍ بالسجع فكلامك نظمٌ لا نثر ... قلت له: وليس هذا - أعزك الله - متى جهلاً بأمر السجع وما في المماثلة والمقابلة من فضل ولكني عدتُ ببلدي فرسان الكلام وذهبتُ بغباوة أهل الزمان وبالأحرى أن أحركهم بالإزدواج ... ليس لسيبويه فيه (كلامهم) عملٌ ولا للفراهيدي إليه طريق ولا للبيان عليه سمة إنما هي لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني نادية المجوس والنبط» فصاح «إنا لله، ذهبت العرب وكلامها! ارمهم يا هذا بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم ويظير لك ذكر فيهم»^{٦٠}. وفي النهاية يعترف كل من صاحب عبد الحميد والجاحظ بحلاوة سجعه.

على أن لنثره ميزة أخرى وهي أنه يذكر خلال نثره أشعاره دفعا للملل كما ذكرنا ويرى زكي مبارك أن من أسباب الالتواء الذي نشهده في نثر ابن شهيد «غرام الرجل... بمقارعة كتاب المشرق ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها في زمانه بريق ... وكان النثر في ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر... واستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محيرة موشاة تؤدى في عالم النثر ما كانت تؤدى النفاض في عالم الشعر فوق له مع ابن[الإفليلي] وابن[الحناط] وغيرهما مناظرات كان لها في مجالس المغرب دوىٌ شديد»^{٦١}.

فلا ينبغي تكلفه هذا عن ضعف فيه فلم يكن إلا دليلاً على أنه قد ملك ناصية الفن في هذا المضمار كما أشار إليه صديقه ابن حزم في نفح الطيب^{٦٢}. ويشهد

على حسنه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في الكمال والتمام وحسن الرونق والنظام فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن نظام صور رائقة في الكلام تملأ القلوب وتشفغ النفوس فإذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ولجمال تركيبها أسا لم تعرفه وهذا هو الغريب أن يركب الحسن من غير حسن»^{٦١}.

إن في هذه الفقرة أصول قيمة في النقد أولها هو أن ملكة البيان لا تتحصل بقراءة الكتب وحفظ الكثير من الغريب والمهارة في الصرف والنحو بل تتحصل بالطبع مع تطلع الشاعر أو الخطيب من هذين أي الصرف والنحو فهذا يدل على أنه لم يكن ينكر قيمة الصرف والنحو واللغة بل يراها من الأسباب اللازمة لإصابة البيان يؤيده ما ذكر من انكبابه على الدواوين ومن جلوسه إلى الأساتيد حيث يقول: «كنت أيام كتاب الهجاء أحن إلى الأدباء وأصبو إلى تأليف الكلام فاتبعته الدواوين وجلست إلى الأساتيد فنفض لي عرق الفهم ودر لي شريان العلم»^{٦٢}.

فاتباع الكتب والدواوين والجلوس إلى الأساتيد من الأسباب اللازمة لدر شريان العلم ثم يستمر في كلامه قائلا: «بمواد روحانية وقليل الالتماح من النظر يزيدني ويسير المطالعة من الكتب يفيدني إذ صادف شئ العلم طبقه ولم أكن كالثلج نقبس منه نارا ولا كالحمار يحمل أسفارا»^{٦٣}. فلما در له شريان العلم بمواد روحانية صار بعد ذلك في حالة عالية لم يكن يفيدته مطالعة الكتب لأن شئ العلم قد صادف طبقة. ثم يصرح في معرض تعليم أحد تلاميذه الفصاحة بأنه يجب عليه اختيار مليح النحو ومليح اللفظ كما يجب عليه ترك قبيحهما^{٦٤}.

نعم هذا هو الحق في رأى أبى عامر فيما يتصل بالصرف والنحو وكتب البديع خلافا لما يؤهم كلامه من أنه كان يعادى النحو والنحويين والصرف وأصحابه لأنهما فضولان لا يفيدان الشاعر والكاتب. أما سر تهاجمه لهم فيبدو من كلامه أنه وقع عرضة لهجماتهم العنيفة فبدأ يدافع عن نفسه بما جاء عنه في مذمتهم.

ثم في الفقرة المذكورة نكتة قيمة وهي مقياسه في الشاعر أو الأديب البارِع وهو «الطبع» ومقداره يناسب مقدار استيلاء النفس على الجسم فذلك يمكن أن نجعله في مدرسة النقد الذاتي (التأثري) لأن مقياسه في النقد هو أن يكون النتاج الأدبي خارجا من أعماق نفس الكاتب لذلك يرى أن الأدب المطبوع ليس له قواعد ولا يتقنن له فيقول: «فإذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ولجمال تركيبها أسا لم تعرفه» وهذا القول يذكرني بما قرأت عند الناقد المعاصر محمد مندور في معرض تأكيده على التأثرية (النقد الذاتي) كمرحلة من مراحل النقد الأدبي حيث يردّد مرات قول إسحاق الموصلي الموسيقي العربي القديم في حديثه عن جمال النغم: «إن من الأشياء أشياء تتركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة»^{٦٥}. هذا هو نفس قول ابن شهيد أي هناك من الجمال يدركه الإنسان بإحساسه لكنه لا يستطيع أن يبينه بالحجج العقلية التي يستطيع الغير إدراكها لذلك نراه يسرد أمثلة^{٦٦} ليس في ظاهر ألفاظها جمالا إلا أنه بسبب تأثيرها في النفس يعتبرها جميلة.

وأما من أين يأتي هذا الطبع هل هو مكتسب أو موهوب ؟ فهو جدّ مائل إلى الثاني، فهو يؤكد غير مرة على أن البيان يحتاج إلى مقدرة ذاتية^{٦٧} فليس تعليمه من شأن المؤدّبين بل هو من تعليم الله تعالى ثم

لا يستحق اسم البيان»^{٦٩}.

الهوامش

- ١- هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمرو بن محمد بن عيسى بن شهيد؛ المغرب في حلى المغرب؛ ج ١، ص ٧٨؛ أيضاً راجع نسبه في: ابن شهيد الأندلسي حياته وأثاره؛ ص ١٩.
- ٢- الاعلام.
- ٣- ابن شهيد الأندلسي حياته وأثاره، ص ٢٠.
- ٤- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس...، ص ١٧٧.
- ٥- المرجع السابق.
- ٦- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة؛ ص (١٦٣ - ١٦٤).
- ٧- أيضاً راجع ص (١٦٤ - ١٦٧) من نفس المصدر.
- ٨- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٢، ص ١٢١.
- ٩- الذخيرة؛ ١/١، ص ١٦٣ - ١٦٤.
- ١٠- ابن شهيد الأندلسي...؛ ص ٣٠.
- ١١- تاريخ الأدب العربي؛ ج ٤، ص ١٦٨.
- ١٢- الذخيرة؛ ١/١، ص ٧٠.
- ١٣- ابن شهيد الأندلسي...؛ ص ٣٥.
- ١٤- راجع: الذخيرة؛ ١/١، ص ١٨٠ - ١٨٢، ١٨٩.
- ١٥- ٢٠٥ - ٢٠٧، ٢٣٢ - ٢٣٣.
- ١٦- المرجع السابق؛ ص ٢٢٤، حيث الإشارة إلى حجدريته.
- ١٧- المرجع السابق؛ ١/١، ص ١٧٠، ١٧٤، ١٧٧ - ١٧٨.

يرى أن من الواجب أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضيات الأحوال حيث يقول: «لكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان»، علاوة على ذلك «لكل عصر بيان ولكل دهر كلام ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواد وكما أن لدنيا دولا فذلك للكلام ثقل وتغاير في العادة» فلا بد لكل شاعر أو أديب رعاية مقتضيات أحوال المخاطبين كما أنه يجب أن يساير زمنه وأذواق الناس آنذاك. مع هذا الإشتراط يختار العدل حين الإسراف ولا يأبه بأذواق الناس فيقول وهو يذكر انتقال الشعراء حسب العادة في الصنعة بانتقال الزمان: «ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس وخرج عن العادة وطاب ذلك منه وامتثله الناس فكل شعر لا يكون اليوم تجنيساً أو ما يشبهه تمجّه الأذان والتوسط في الأمر وأعدل ولذلك فضل أهل البصرة «صريع الغواني» على أبي تمام»^{٧٠}.

ثم هو يعطى الأهمية البالغة إلى جرس الحروف وأوزانها فيقول: «إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلمات فإذا جاور النسيب النسيب وجاور القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة وإذا ركب صور الكلام من تلك حسنت المناظر»^{٧١}.

يقسم ابن شهيد أهل صناعة الكلام ثلاث طبقات: «منهم من ضعف في تأليف الأوصاف والمعاني المخترعة والألفاظ الجيدة خاصة حين ازدحام المطالب، والطبقة الثانية هم الذين لا يشكون الفشل حين ازدحام المطالب في الكلام، والطبقة الثالثة هم الذين يتجافون الكلام... وجل ما عندهم تلفيق وحيلة وبذلك يصاحبون الأيام... ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث

- ١٦- المرجع السابق؛ ج ٣، ص ١٤٠.
- ١٧- المرجع السابق؛ ١/١، ص ١٩٣.
- ١٨- المرجع السابق؛ ١/١، ص ٢٨١ - ٢٨٢.
- ١٩- المرجع السابق.
- ٢٠- المرجع السابق؛ ١/١، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.
- ٢١- المرجع السابق؛ ص ٢٨٨.
- ٢٢- المرجع السابق؛ ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
- ٢٣- بيتمة الدهر في محاسن أهل العصر؛ ج ٢، ص ٤٩.
- ٢٤- الذخيرة؛ ١/١، ص ١٦١.
- ٢٥- المرجع السابق؛ ص ١٦٢.
- ٢٦- المرجع السابق؛ ص ٢٣٢.
- ٢٧- المرجع السابق؛ ص ٢٣٢.
- ٢٨- الديوان؛ ص ٤٢.
- ٢٩- تاريخ الأدب العربي؛ ص ٥٩٧.
- ٣٠- الذخيرة؛ ١/١، ص ١٦٢.
- ٣١- المرجع السابق.
- ٣٢- تاريخ الأدب العربي؛ ج ٤، ص ٤٥٤.
- ٣٣- ابن شهيد الأندلسي حياته وأثاره؛ ص ١٢٣.
- ٣٤- الذخيرة؛ ١/١، ص ١٦٢.
- ٣٥- تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر الطوائف والمرابطين؛ ص ٩٧، نقلاً عن الذخيرة ٢/١، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
- ٣٦- الذخيرة؛ ١/١، ص ١٩٥.
- ٣٧- المرجع السابق؛ ص ١٨٥.
- ٣٨- تاريخ الأدب العربي؛ ج ٤، ص ٤٥٥.
- ٣٩- تاريخ الأدب العربي؛ ص ٥٩٨.
- ٤٠- الذخيرة؛ ١/١، ص ٢٥٧.
- ٤١- المرجع السابق؛ ص ١٧٨.
- ٤٢- ابن شهيد الأندلسي حياته وأثاره؛ ص ١١٤.
- ٤٣- المرجع السابق؛ ص ١٢٠.
- ٤٤- راجع الذخيرة؛ ١/١، ص ٢١٧ - ٢٢٤.
- ٤٥- المرجع السابق؛ ١/١، ص ١٦٢.
- ٤٦- المرجع السابق؛ ص ١٦١ - ٢٨٩.
- ٤٧- عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي؛ ج ٢، ص ٤٥٥.
- ٤٨- المرجع السابق؛ ص ٤٦.
- ٤٩- المرجع السابق؛ ص ٤٩.
- ٥٠- التوابع: جمع التابع أو التابعة وهو الجنى والجنينة يتبعان الإنسان حيث ذهب والزوابع جمع الزوبعة اسم شيطان مارء أو رئيس من رؤساء الجن ومنه سمي الإعصار زوبعة. لسان العرب، مادة تبع وزبع.
- ٥١- راجع: النثر الفنى فى القرن الرابع، دار الكتب، ١٩٣٩م/١٣٥٢ هـ، ج ١، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ وشارل بلا، ابن شهيد الأندلسي حياته وأثاره، ص ٩٧-٩٩.
- ٥٢- النثر الفنى فى القرن الرابع؛ ج ٢، ص ٣١١. أيضاً راجع: المجانى الحديثة؛ ج ٥، ص ٣٣ وحنّا الفاخورى، ترجمة عبد المحمد أيتى، ص ٥٩٨.
- ٥٣- الذخيرة؛ ١/١، ص ١٩٢ - ١٩٣.
- ٥٤- المرجع السابق؛ ص ٢٢٨ - ٢٢٩.
- ٥٥- النثر الفنى فى القرن الرابع؛ ج ٢، ص ٣١١.
- ٥٦- أحمد بن محمد المقرئ، ج ٢، ص ١٢١.
- ٥٧- الذخيرة، ١/١، ص ١٦٢.
- ٥٨- تاريخ الأدب العربى، ترجمة عبد المحمد أيتى، ص ٥٩٨.
- ٥٩- تاريخ الأدب الأندلسي؛ ص ١٥٠. أيضاً، راجع: رياض قزحجة، الفكاهة فى الأدب الأندلسي، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م/

- ١٤١٨ هـ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.
- ٦٠- الذخيرة؛ ١/١، ص ١٩٧.
- ٦١- المرجع السابق؛ ص ٢١١.
- ٦٢- المرجع السابق.
- ٦٣- المرجع السابق؛ ص ١٩٩.
- ٦٤- النقاد المعاصرون؛ ص ٢٣٣.
- ٦٥- الذخيرة؛ ١/١، ص ١٩٧ - ١٩٨.
- ٦٦- المرجع السابق؛ ص ٢٣٤. كذلك راجع ص ٢٠٥.
- ٦٧- المرجع السابق؛ ١/١، ص ٢٠٣.
- ٦٨- المرجع السابق؛ ص ١٩٩.
- ٦٩- المرجع السابق؛ ص ٢٠٣ - ٢٠٤.
- المصادر والمراجع**
- ١- ابن بسام الشنتريني، علي؛ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة؛ القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٨ هـ/ق ١٩٣٩ م.
- ٢- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى؛ المغرب في حلى المغرب؛ تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.
- ٣- ابن شهيد الأندلسي، عبد الملك؛ الديوان؛ جمع Charles Pellat، الطبعة الأولى، بيروت، دار المكشوف، ١٩٦٣.
- ٤- ابن محمد، علي؛ النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس «مضامينه وأشكاله»؛ بيروت، دار المغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م.
- ٥- ابن منظور، محمد؛ لسان العرب؛ قم، أدب الحوزة، ١٣٦٣ هـ/ش.
- ٦- البستاني، فؤاد أفرام؛ المجاني الحديثة؛ بيروت، منشورات الأدب الشرقية، ١٩٥١ م.
- ٧- بلا، شارل؛ ابن شهيد الأندلسي حياته وأثاره؛ منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٦٥ م.
- ٨- الثعالبي، عبد الملك بن إسماعيل؛ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- ٩- الزركلي، خير الدين؛ الأعلام؛ الطبعة الثالثة، ١٣٨٩ هـ/ق ١٩٦٩ م.
- ١٠- الضبي، أحمد بن يحيى؛ بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس؛ طبع مجريط، ١٨٨٤ م.
- ١١- عباس، إحسان؛ تاريخ الأدب الأندلسي- عصر الطوائف والمرابطين؛ بيروت، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٧١ م.
- ١٢- الفاخوري، حنا؛ تاريخ الأدب العربي؛ ترجمة عبد الحميد آيتي، تونس، ١٣٦١ هـ/ش.
- ١٣- فروخ، عمر؛ تاريخ الأدب العربي؛ ج ٤، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤.
- ١٤- قزيحة، رياض؛ الفكاهة في الأدب الأندلسي؛ صيدا- بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٣١٨ هـ/ق ١٩٩٨ م.
- ١٥- مبارك، زكي؛ النثر الفني في القرن الرابع؛ القاهرة، دار الكتب، الطبعة الأولى، ١٣٥٢ هـ/ق ١٩٣٩ م.
- ١٦- المقرئ، أحمد بن محمد؛ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ/ق ١٩٩٥ م.
- ١٧- مندور، محمد؛ النقد والنقاد المعاصرون؛ القاهرة، دار نهضة مصر.

ابن شهید اندلسی شاعر، ناثر و ناقد

دکتر مرضیه آباد^۱

ابو عامر احمد بن عبد الملک بن شهید از بزرگان ادب عربی در اندلس قرن پنجم هجری است. وی شاعر و نویسنده و ناقدی چیره دست بود و مقاله‌ای حاضر ابعاد مختلف این شخصیت برجسته یعنی نظم و نثر و آراء نقدی همچنین رساله‌ای زیبای وی «التوابع والنوابع» را که بیانگر خلاقیت ذهن شاعر است مورد بررسی قرار می‌دهد.

کلید واژگان: ابن شهید اندلسی، ادب اندلسی، شعر، نثر، نقد، تاریخ ادبیات عرب.

^۱. ستادیار دانشگاه فردوسی مشهد